الشعر العصري

١٢

المقدمة

اذن لاخطاء اذا اعطينا الشعر حكم الخمر والسحر فكل الثلاثة قاهر لسجايا النفس قادر على تسخيرها لما يشاء. والشعر انما يكتسب هذه المزية بحسن البيان وجودة الصناعة وسلامة الذوق وسيأتي الكلام عن القسم الاخير في غير هذا الموضع وهذا مصداق الحديث الشريف (ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا) وقد فطن الكثيرون من الشعراء لهذه المشابهة فوصفوا الشعر باوصاف الخمر والسحر. قال ابو العلاء المعري يجيب بعض اصحابه على شعر بعثه اليه

شعر كان معاني السكر تسكنه ... فمن تحفظ بيتاً منه لم يفق

صبحني منه كاسات غنيت بها ... حتى المنية عن قيل ومغتبق

وبعده وفيه دلالة على تشجيع الشعر الجيد لسامعه كالذي سلف

جزل يشجع من وافى له اذنا ... فهو الدواء لداء الجبن والقلق

اذا ترنم شاد للسراع به ... لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق

وزاد فتناول غير هذا المعنى اذ يقول

وان تمثل صاد للصخور به ... جادت عليه بعذب غير ذي رنق

وفيه تأييد لقولنا ان الشعر يغلب البخيل على سجيته وقال بعضهم يصف شعره ولعله الشريف الرضي.

أتتك تشتت لب الفتى ... كما مرقت نفثة الساحر

وقال في مثله ذو الوزارتين ابو بكر محمد بن احمد يصف شعر صديقه ابي بكر الطائي

هو السحر بل اخفى من السحر رقة ... واسرى الى الاكباد من نطف الخمر

الا ان الفرق بين الثلاثة واضح يعرفه العقل الراجح فالسحر في ذاته لايبلغ مبلغ الشعر في الشرف وحسبك ما ورد فيه من النهي والتحذير وما رمي به صاحبه من التكفير فالساحر قد يكفر وهو لايدري ثم ان المسحور قد يفسد حسه ويختل ادراكه فتعمى عليه وجوه الصواب ويأتي من الامور ما يعاب. ثم ان المخمور اذا بلغ به السكر نطق الهجر وفعل النكر ولقد تحول الاشياء في نظره عن حقائقها فيرى حسنها قبيحاً وقبيحها حسناً مليحاً

اسقني حتى تراني ... حسناً عند القبيح

قاله ابو نواس وانشد غيره

يحسن السكر في عيني ما صنعت ... حتى ارى حسناً ماليس بالحسن

وما ظنك بقول القائل

شربنا شربة من ذات عرق ... باقداح الزجاج من العصير

واخرى بالمروح ثم رحنا ... نرى العصفور اعظم من بعير

كان الديك ديك بني تميم ... امير المؤمنين على السرير

كان دجاجهم في الدار رقطا ... بنات الروم في قمص الحرير

فبت ارى الكواكب دانيات ... يظن الناظر الرجل القصير

ادافعهن بالكفين مني ... والثم لبة القمر المنير

فهل بعد هذا سفاه وغرور يأتيهما المخمور ويتبع السحر والخمر في التحاقهما

بالشعر آلات الطرب كالموسيقى وغيرها وقد شاع تأثير هذه الالات الى حد غريب حتى عند ابناء الغرب وناهيك باستعمالها عند لقاء العدو واقتحام المخاوف وانك لتجد ذلك في نفسك عند سماعها فتكون باذلاً لما منعت من قبلها مقدماً على ما تهيبت في غيبها وربما كان لهذه الالات مزية خاصة بها فانها تؤثر على ذات شعور الانسان حتى لايجد ألماً لمؤلم وهذا ما أرى غير تأثير الشعر فانه يبعث في المرء قوة وجلداً على احتمال الآلام وهو شاعر بها كل الشعور وذلك لتغلب الحمية عليه وهياج الحفيظة في نفسه وليت المقام يتسع للقلم فنأخذ من هذا الباب الدقيق المسالك بالابحاث الفلسفية مقيمين الشواهد العقلية والحسية على حقيقة هذه القضية على انها سافرة ساطعة وبارقة لامعة فلنأخذ في غير هذا من الابانة عن فضل الشعر والشعراء. قالوا بعث زياد بولده الى معاويه فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالماً بكل ما سأله عنه ثم استنشده الشعر فقال لم ارو منه شيئاً فكتب معاوية الى زياد ما منعك ان ترويه الشعر فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر وان كان البخيل ليرويه فيسخو وان كان الجبان ليرويه فيقاتل. فاما ماكان في العصور الاولى من تأثير الشعر فيكثر عن العد ويجل ان ينتهي الى حد فانظر الى قول البحتري من هذا المعنى

ومشرقة في النظم غر يزيدها ... بهاء وحسناً انها لك تنظم
ضوامن للحاجات اما شوافعاً ... مشفعة او حاكمات تحكم

وانه لكذلك يشفع الشعر ويحكم اذا استكمل حقه من الاجادة وما أصدق ابا تمام اذ يقول

ولولا سبيل سنها الشعر ما درى ... بغاة الندى من اين تؤتى المكارم

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ... ويقضي بما يقضي به وهو ظالم

ومما يعجبك من شدة حفاوة العرب بالشعر واعطائهم اياه حكم الاعلاق والنفائس والآثار الصالحة الداعية الى الفخر قول شاعرهم

فان اهلك فقد أبقيت بعدي ... قوافي تعجب المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات ... لوان الشعر يلبس لارتدينا

كأنه لا يسر بشيء هو تركه سروره بتلك القوافي المحكمات ولا يرى شيئاً ادعى الى الفخر من تلك المقاطع اللذيذات. فرحم الله ذلك المرء وبارك في هذه الآثار الصالحات — قال بعضهم انما الشعر كالميسم فقيل وكيف يكون ذلك كذلك والميسم يذهب بذهاب الجلد ويدرس مع طول العهد والشعر يبقى على الابناء بعد الآباء ما بقيت الارض والسماء والى هذا نحا الطائي بقوله

واني رأيت الوسم في خلق الفتى ... هو الوسم لا ماكان في الشعر والجلد

وما احسن ما قاله من هذا المعنى محمد بن حازم وقد قال له يحيى بن اكثم ما في شعرك شيء غير انك لا تطيله فقال

ابى لي ان اطيل الشعر قصدي ... الى المعنى وعلمي بالصواب
فأبعثهن اربعة وخمساً ... مثقفة بالفاظ عذاب
خوالد ما حذا ابل نهاراً ... وماحسن الصبي بأخي الشباب
وهن اذا وسمت بهن قوماً ... كأطواق الحمائم في الرقاب

فذلك ماجعل للشعر المحل الأعلى عند العرب وفي اخبارهم واحاديثهم ما يسر الاديب ويلذ اللبيب. حدثوا ان بني انف الناقة كانوا شديدي الانفة والحياء لذكر هذا الاسم حتى اذا قال قائل شيئاً عن انف الناقة الحقيقية تأذوا او غضبوا فما هو الا ان قال الحطيئة فيهم

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوي بانف الناقة الذنبا

فكان احدهم اذا سئل عن نسبه لم يبدأ الا به وكان بنو العجلان واسمه عبدالله يفتخرون بهذا الاسم لانه انما سمي به لتعجيله القرى فكان فخراً لهم فما هو الا ان قال النجاشي يهجوهم من ابيات تقدم ذكر بعضها

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب ايها العبد واعجل

فكان الرجل منهم اذا سئل عن نسبه قال كعبي وكنى عن العجلان ومثله ان بني عبد المدان الحارثيين كانوا يفخرون بطول اجسامهم فقال حسان فيهم

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال واحلام العصافير

فقالوا له والله يا ابا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر اجسامنا بعد ان كنا نفخر بها فقال لهم سأصلح منكم ما افسدت وقال فيهم

وقد كنا نقول اذا التقينا بذي جسم يعد وذي بيان

كانك ايها المعطي بيانا وجسما من بني عبد المدان

وما ادراك ما فعل بيت جرير ببني نمير

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قالوا ما بقي نميري بعد هذا الا طأطأ رأسه وناهيك بقول ابي تمام يعرض بهذا البيت

وسوف يزيدكم ضعة هجائي كما وضع الهجاء بني نمير

وجاء غير هذا كثير من الهجاء الذي وضع من اقدار سروات القبائل من غير ماحق. غير انه الشعر لا يذهب وسمه ولا يعفو رسمه وانهم الشعراء لهم ماقضوا وما حكموا وان جاروا وظلموا فحسبك ما ذكرنا من هذه

الاحاديث واليك انا آخذون بك في سواه — قالوا وفد بنو جعفر بن كلاب على النعمان وكان يجلهم فرأوا منه جفوة وكان جليسه الربيع بن زياد العبسي وكان عدواً لهم فاتهموه بالسعي عليهم عنده وكان رئيسهم ابو براء عامر بن مالك عم لبيد وكان لبيد غلاماً في جملتهم يتخلف في رحالهم فاخبروه فقال اتقدرون ان تجمعوا بيني وبينه فارجزه بكلام لا يلتفت اليه بعده فقالوا نعم فكسوه حلة وغدوا به على النعمان فوجدوه يأكل مع الربيع فقال لبيد

يا واهب الخير الجزيل من سعه نحن بنو ام البنين الاربعه

سيوف حق وجفان مترعه ونحن خير عامر بن صعصعه

ثم مضى فقبح الربيع وشنع به ابرح تشنيع فوصفه بالبرص وهو في حل منه لينفر نفس النعمان عنه ورماه بهناة نبا القلم عن ذكرها وابى الا كتمان امرها الى ان قال

(مهلا ابيت اللعن لا تأكل معه)

فالتفت النعمان الى الربيع وقال اكذاك انت يا ربيع فقال لا والله لقد كذب ابن الاحمق اللئيم فقال النعمان اف لهذا طعاماً لقد خبث عليّ انصرف عني يا ربيع قالوا فلحق باهله وارسل الى النعمان بابيات يبرئ فيها نفسه فاجابه بقوله

شرد برحالك عني حيث شئت ولا تكثر عليّ ودع عنك الاقاويلا

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا فما اعتذارك عن قول اذا قيلا

انزل بحيث رأيت الارض واسعة وانشر بها الطرف ان عرضا وان طولا

فانظر يارعاك الله الى البيت الثاني وتأمل كيف يجور الشعر اذا غدا وهو حاكم

(ويقضي بما يقضي به وهو ظالم)

فذلك ماوجب استرضاء الشعراء ومداراتهم وصرف القوم عن معاداتهم ومباراتهم . فاحسن اليهم من لم يسلك الاحسان سبيلا وانالهم من لم يكن لولا خوف انتقامهم منيلا . رووا ان جماعة من الشعراء مدحت جعفر بن سليمان فماطلهم بالجائزة وكان الخليل بن احمد صديقه فاستعانوه عليه فكتب اليه

لاتقبلن الشعر ثم تعقبه ... وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بانهم اذا لم ينصفوا ... حكموا لانفسهم على الحكام
وجناية الجاني عليهم تنقضي ... وعقابهم باق على الايام

قالوا فاجازهم واحسن اليهم فمن لشعراء عصرنا بمثل الخليل ينجح وسائلهم ويبين فضائلهم فلا يشكو مادح اعراض ممدوح ولا يتألم لاخفاق مسعى او تعذر مطلب وخيبة مأمل . ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم وهو يومئذ والي مصر فتشاغل عنه ببعض الامور واستبطأه ربيعة فشخص من مصر وقال

اراني ولا كفران لله راجعا ... بخفي حنين من نوال بن حاتم

فبلغ يزيداً قوله فارسل في طلبه ورده فلما دخل عليه قال له انت القائل (اراني ولا كفران البيت) قال نعم قال فهل قلت غير هذا قال لا فقال والله لترجعن بخفي حنين مملوءتين مالا وامر بخفيه فملئتا ثم قال له اصلح ماافسدت فقال فيه لما عزل من مصر من ابيات اولها

(بكى اهل مصر بالدموع السواجم)

لشتان مابين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والاغر ابن حاتم
فهم الفتى القيسي انفاق ماله ... وهم الفتى العبسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام اني هجوته ... ولكنني فضلت اهل المكارم

ومن عجيب مارأيته من استحقاق الشعر لسامعيه ما حدث به دعبل

انه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وابو الشيص وابو نواس فتناشدوا الشعر فانشد كل واحد منهم ما استجاد من شعره الى ان قال ابو نواس

لاتبك ليلى ولا تطرب الى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت في حلق شاربها ... اجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكاس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها سحراً ومن يدها ... خمراً فما لك من سكرين من بد
لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

فلما بلغ هذا البيت قاموا فخروا ساجدين فتأمل . على ان في هذا الشعر رحم الله قائله موضعاً الانتقاد ينحط به عن هذه المرتبة فان قوله (تسقيك من عينها البيت) يفيد اشتراك الندمان معه في السكرتين فلم يكن ذلك شيئاً خص به من بينهم كما يقول وكيف ذلك بعد قوله (فمالك من سكرين من بد)

ومن عجيب ما رأيته من تسلط ملكة الشعر على النفس وعدم امكان تغلب الشاعر عليها مهما كان قوي الارادة مصمم العزيمة ان عمر بن ابي ربيعة اراد ترك الشعر حين بلغ به الكبر وحلف ان لايقول بيتاً الا اعتق رقبة يظن ذلك يصرفه عن قوله . قالوا فانصرف يوماً الى منزله يحدث نفسه فجعلت جاريته تكلمه فلا يجيبها فقالت ان لك لشأناً واراك تريد ان تقول شعراً فقال رحمه الله

تقول وليدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد اقصرت حينا
اراك اليوم قد احدثت امراً ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت انك ذو عزاء ... اذا ما شئت فارقت القرينا
اجدك هل رأيت لها سميا ... فشاقك ام لقيت لها خدينا

فقلت شكى اليّ اخ محب كبعض زماننا اذ تعلمينا
فقص عليّ ما يلقى بهند فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا
فكم من خلة اعرضت عنها لغير قلى وكنت بها ضنينا
صرفت النفس عنها فاطمأنت وان جن الفؤاد بها جنونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فاعتقهم ويروى البيت الاخير (اردت بعادها فصددت عنها) والاجود ما تقدم فلا يؤاخذنا ابن ابي ربيعة والافقد اضاع واحداً من رقيقه هدراً على انه الرابح وان اعتق في هذا البيت عشرا

وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا
ستأتي البقية (احمد محرم)

عصيان جديد
من المرأة

لما تزوجت جلالة الملكة ولهلمينا ملكة هولاندا حذف لها ذكر الطاعة لزوجها من بين الاقوال التي تلقى على العروسين ساعة الزفاف وذلك بدعوى انها ملكة وان زوجها ليس بذي تاج وانه دونها مقاماً من حيث الصفة السياسية ولذلك لا يصح ان تتعهد له بالطاعة بل انه معدود من جملة رعاياها وهو الملزم بهذه الطاعة لها. ولكن لما تزوجت قبلها المرحومة ملكة انكلترا

عرض عليها ان يحذف ذلك الكلام فلم ترض وقالت انني اتزوج زواج امرأة وليس زواج ملكة اي انها تفضل ان تجري على موجب مارسم الدين والعادة القديمة من ان تجري على موجب الصيغ السياسية والبدع الجديدة

اما بنات هذا العصر وهن ملكات الحرية ان لم يكن ملكات الشعوب فقد صرن من رأي «زميلتهن» الملكة ولهلمينا واصبحن يردن الجري على طريقتها وذلك لما شعرن به الان من المذلة عند ذكر هذه الطاعة لازواجهن والتقيد بها ولما يجدنه من عدم ملاءمتها للزمان الحاضر وشرائعه وهن يقلن ان المرأة اذا كانت في القديم معدودة عبدة للرجل او محسوبة كبهيمة من بهائمه وكان يصح ان يأمرها بكل شيء ويجب ان تطيعه فانها الان قد صارت على خلاف ذلك كثيراً حتى لقد صارت واياه سيين لا فرق بينهما في شيء على الاطلاق من جهة الحقوق جميعها ولذلك لا يصح لها ان تلزم بطاعته الزاماً شرعياً دينياً وان لا يكون هو ملزماً مثلها ذلك الالزام

وعدا هذا فهن يقلن ان المرأة حين تؤمر بالطاعة لزوجها ساعة الزفاف وتتعهد بذلك تعهداً فانما تعد وعد من يقول شيئاً ولا يعيه اي انها تعد في تلك الساعة ثم لا تفي بما وعدت فيما بعد بحيث يكون وعدها لغواً لا معنى له واصبح من الواجب على رجال الدين ان يحذفوا تلك العبارة من الاقوال التي يلقونها على العروسين لانهم يورطون المرأة فيها بالكذب اذ انها لا تجري عليها والكذب مما لا يجب ان يعان عليه ولا سيما من رجال الدين الناهين عنه والمعبدين لاسبابه

ولقد نشرت احدى النساء الانكليزيات فصلاً في هذا الموضوع قالت فيه ان كثيرات من البنات اللواتي لا تطاوعهن ضمائرهن على الكذب ولا